جامع مدينة سطيف الجزائرية: ذاكرة تسرد حكايا الزمن والنضال

الجزائر: العمانية

من المعالم التاريخية والأثرية التي تزخر بها مدينة سطيف (٣٠٠ كم شرق الجزائر)، جامعُها العتيق الذي يقف شامخا متحدّيا عاديات الزمن وصروفه، فبالرغم من مرور ما يُقارب قرنين على بنائه، ما زال بنيانه وأساساته وصومعته الفريدة تربط ماضي مدينة سطيف بحاضرها، وتحكي لسكان «عين الفوارة» قصصا رائعة من البطولات والتضحيات في سبيل تحرير الجزائر من نير الاستعمار الفرنسي.

يُعدّ الجامع العتيق من المعالم الأولى التي تمّ تشييدها في مدينة سطيف، حيث يعود تاريخ بنائه إلى العهد الفرنسي، وهذا بحسب التواريخ الثلاثة المدوّنة داخله، أوّلها يُؤكد أنّ تاريخ البناء يعود إلى سنة ١٢٦٢هـ، أي ما يوافق سنة ١٨٤٥م، كما تدلُّ على ذلك اللّوحة التأسيسية فوق المدخل الرئيسي خارج الجامع. أما تاريخ الفراغ من تشييده، فكان في العام ١٨٤٧م، أي بعد سنتين من بداية أشغال البناء، بحسب ما دلّت عليه الكتابات الزخرفية في الداخل وتوقيع مزخرفها. أما الثانية، فتوجد على جانب المدخل الأوسط المؤدّي إلى بيت الصلاة، في حين توجد الكتابة الثالثة في أقصى الركن الجنوبي الشرقي من بيت الصلاة، حيث نقرأ عليها عبارة «وما توفيقي إلا بالله.. كتبه محمد بن الآغا ١٢٦٤هـ الموافق لسنة ١٨٤٧/ ١٨٤٨م».

وقال الشيخ إبراهيم بن العمروي بودوخة، إمام المسجد منذ عام ١٩٩٢، في حديث لوكالة الأنباء العمانية، أنّ الجامع العتيق هو أقدم مسجد بمدينة سطيف، وأنّه ظلّ الجامع الأوحد على مستوى المدينة إلى غاية سنة ١٩٣٢، تاريخ بناء مسجد المحطة. وعلى هذا الأساس، يُؤكد الإمام بودوخة، الحاصل على شهادة الدكتوراه في الشريعة (تخصُّص الفقه وأصوله)، أنّ المسجد العتيق بقي لسنوات طويلة قبلة للعلماء من القضاة الشرعيين وأهل الفتوى، وشيوخ العلم والقرآن، وحتى أهل التصوُّف.

ومن الأمور المثيرة في حكاية هذا الصرح الديني الفريد، بحسب بودوخة، أنّ القطعة الأرضية التي شُيّد عليها الجامع العتيق كانت عبارة عن هبة تبرّعت بها امرأة كرغلية من الأتراك الجزائريين، وما تزال عائلة كراغل موجودة في سطيف إلى الآن. أما عملية البناء فتكفّل بها المواطنون من خلال عمليات جمع التبرعات. وجدّدت شركة إيطالية بناء المسجد مُستعينة بذلك بمهندسين أتراك، ولعلّ اسم المهندس الذي أشرف على العملية هو علي الآغا، كما هو مدوّنٌ داخل المسجد.

ويرد اسم الملك الفرنسي لويس فليب (١٨٣٠-١٨٤٨) في الكتابات الأساسية للجامع العتيق، وهذا ما فسّره بودوخة بقوله إنّ تجديد الجامع كان في عهد ذلك الملك، وإن السياسة الاستعمارية المنتهجة في بداية احتلال الجزائر كانت تحاول إيهام الجزائريين بأنّها ليست ضد الإسلام.

هذا التفسير الذي أورده الإمام لمسألة وجود اسم ملك فرنسي على كتابات المسجد، تُعزّزه الكثير من التفسيرات المثبتة عبر عدد من المراجع التاريخية، حيث اعتبرت تلك المراجع أنّ السياسة الفرنسية آنذاك كانت تستند إلى أنّ إنجاز أيّ مستعمرة تقيم الحكومة الفرنسية على نفقاتها مسجدا يوهب للقرية باسم ملك فرنسا والإيالة، وقد تبنّت فرنسا آنذاك التراث المعماري الزخرفي المحلي (الفن المغربي-الأندلسي) على وجه التحديد في عمائرها الرسمية الإدارية، كما هو الشأن بالبريد المركزي بالعاصمة مثلا، كي «تتظاهر أمام الشعب الجزائري في الداخل، أنّها لا تعمل على طمس الهوية العربية الإسلامية».

ويعود الفضل في بقاء هذا الجامع منارة علمية خاصة بمدينة سطيف إلى كوكبة من الشيوخ والأئمة والقضاة الشرعيين الذين تداولوا على إمامة الناس، ولعلّ أهمّ الأسماء التي يوردها بودوخة في هذا الشأن، نقلاً عن كتاب «تعريف الخلف برجال السلف»: الشيخ سعود السعودي، الشيخ محمد الطاهر خبابة، الشيخ محمد الصغير خاسف، الشيخ العيفة العياضي، الشيخ محمد قادري والشيخ إبراهيم بن العمراوي بودوخة. وقد كان الشيخ خبابة يشغل وظيفة مفتي مدينة سطيف وضواحيها، ودفع على درب الشهادة في سبيل تحرير الجزائر من الاستعمار باثنين من أولاده خلال ثورة التحرير. والأمر نفسه ينطبق على الشيخ العيفة العياضي الذي دفع من جهته باثنين من أبنائه شهيدَين في ثورة الفاتح من نوفمبر.

وفضلا عن كلّ ما سبقت الإشارة إليه بخصوص الجامع العتيق لمدينة سطيف، فإنّه المعلم الوحيد من ضمن معالم المدينة المصنّف من طرف وزارة الثقافة بوثائق رسمية.

ولعلّ أهمّ ما يُميّز الجامع العتيق من الناحية المعمارية أساليبه الزخرفية التي هي على قدر عالٍ من الأهمية في الدراسة الأثرية والتّاريخية. فانفراد الجامع بمخطط معماري دخيل على عمارة المساجد الإسلامية المعهودة في الجزائر منذ الفتح العربي الإسلامي لشمال إفريقيا، هو ما يُعطيه تلك الخصوصية في تشابه وسائل دعمه المعمارية، وكذا نظام تسقيفه الجلموني أو السنامي وأسلوب الزخرفة الهليني، والمقصود بذلك هو الحضارتان الإغريقية والرومانية، هذا دون نسيان نظام إضاءته الداخلي المستوحى من نظام عمارة الكنيسة الكاثوليكية المسيحية، وهي مظاهر حضارية ثقافية تبنّتها الجمهورية الفرنسية الثانية وهي في ريعان قوّتها الفنية، كما هو معلوم. أضف إلى ذلك، تداخل شكله الممزوج بين أسلوب المآذن المحلية ذات الشكل رباعي الأضلاع، والأسلوب العثماني ذي الطراز الدائري أو المتعدّد الأضلاع القلمي.